التّقديم والتّأخير في نماذج من روميّات أبي فراس الحمدانيّ

د. مصطفى نمر *

ميساء شيخ خميس **

ملخّص

الشّعر فنّ اللعب باللّغة ، وحُسن توظيفها ، ولاسيّما في ميدان الشّعر ، وعندما نرغب بدراسة هذا النّوع من اللّغة فإنّه يفترض بنا دراسة هذا النّمط من اللّغة الشّعريّة استناداً إلى حركيّة المركّب النّحويّ ، في المستوى البلاغيّ ، مُستخدمين تقنية التّحليل النّصّيّ ، وذلك كي لا نُكرّر المُكرَّر ، فالمادّة النّظريّة متكرّرة كثيراً ، أمّا الدّراسة التّحليليّة فحمّالة أوجه ، متعدّدة الأذواق ، ومن هنا سنقف على موضوع العدول باستخدام تقنية التّقديم والتّأخير في نماذج من روميّات أبي فراس الحمدانيّ ، وذلك في محورين ؛ الأوّل : التّقديم والتّأخير في المركّب الاسميّ، والثاني: التّقديم والتّأخير في المركّب الفعليّ ، ثمّ قدّمنا النّتائج التي توصّل إليها البحث بصورة موجزة ، وينتهي البحث بثبت للمصادر والمراجع .

الكلمات المفتاحيّة : العدول ، التّقديم ، التّأخير ، العدول .

* أستاذ البلاغة وموسيقا الشّعر في كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة .

** طالبة دراسات عليا – ماجستير ، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة .

Presentation and Delay in Examples of Abi Firas Al-Hamdani's Romans

Pr. Mustafa Nemer *

Maysa Sheikh Khamis **

Abstract

Poetry is the art of playing with language and making good use of it, especially in the field of poetry. Theoretical material is repeated a lot, but Analytical study has many facets, with many tastes, and from here we will stand on the issue of reversal using the technique of introduction and delay in models from Abi Firas Al-Hamdani's romances, and that is in two axes; The first: introduction and delay in the nominal compound, and the second: presentation and delay in the actual compound, then we briefly presented the results of the research, and the research ends with a list of sources and references.

Keywords: reversal, submission, delay, reversal.

* Professor of Rhetoric and Poetry Music in the Faculty of Arts and Human Sciences, Tishreen University, Lattakia.

** Postgraduate Student - MA, Faculty of Arts and Human Sciences, Tishreen University, Lattakia

أهمِيّة البحث :

تتأتّى أهمِيّة البحث من كونه يتناول بالدّراسة جانباً من شعر أبي فراس الحمدانيّ ، وهو الشّعر الذي قاله في الأسر ، وأطلق عليه اسم (الرّوميّات) ، وذلك عبر دراسة جانب بلاغيّ جماليّ هو التّقديم والتّأخير الذي يُضفي على النّصّ رونقاً وحلاوة خاصة .

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى دراسة ظاهرة التّقديم والتّأخير بوصفها من أهمّ أشكال العدول التّركيبيّ وتجلّياتها في نماذج من روميّات أبي فراس ، وبيان تأثير العدول في صناعة الشّعريّة ، وبيان تمظهرات التّقديم والتّأخير في المركّب الاسميّ ومن ثمّ في المركّب الفعليّ .

الدّراسات السّابقة :

هناك كثير من الدّراسات التي درست شعر أبي فراس الحمدانيّ ، منها :

- سجنيّات أبي فراس الحمداني – دراسة أسلوبيّة ، وهي رسالة ماجستير من إعداد الطّالب نبيل قوّاس ، وإشراف د. محمّد منصوري ، نوقشت في الجزائر ، جامعة الحاج لخضر – باتنة ، عام 2009 م .
- روميّات أبي فراس الحمداني – دراسة جماليّة ، رسالة ماجستير إعداد فضيلة بن عيسى ، إشراف أ. د. محمّد زمري ، جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان ، الجزائر ، 2004 م .
- دراسة أسلوبيّة في شعر أبي فراس الحمداني ، رسالة ماجستير إعداد نهيل فتحي أحمد كتانة ، إشراف د. خليل عودة ، جامعة النّجاح الوطنيّة ، فلسطين ، 2000 م .
- التّقديم والتّأخير في شعر العصر العبّاسي الثّاني – ديوان أبي فراس أنموذجاً ، رسالة ماجستير إعداد عبير عبد الصّاحب جاسم ، إشراف د. تحرير محمّد مناحي الرّفيعي ، جامعة بغداد – العراق ، 2011 .
- التّشكيل اللّغويّ في شعر السّجن عند أبي فراس الحمدانيّ ، د. عبّاس علي المصري ، مجلّة جامعة الأقصى ، فلسطين ، سلسلة العلوم الإنسانيّة ، المجلّد 13 ، العدد1 ، 2009 .

منهج البحث :

سنعمد في هذا البحث إلى الخوض في غمار التّحليل النّصِّيّ ، على وفق المنهج الوصفي بأدواته الأسلوبيّة الذي يتيح لنا الكشف عن هذا اللون من العدول ، وتصنيف ظواهره ودراستها ، مُستخدمين هذه التّقنيات بوصفها مداخل إجرائيّة نصِّيّة في عمليّة التّحليل .

مقدّمة :

إنّ تركيب أجزاء الكلام وتشكيله النّصّيّ يخضع لمؤثّرات مختلفة المصدر ، ينبع بعضها من النّظام النّحويّ والبناء المعياريّ للبنية اللغويّة ، وينبع بعضها الآخر من أشكال العدول وتجلّياته المتنوّعة ، فالمبدع يُدرك بشكل بديهي أنّ الإبداع النّصيّ يستلزم " أن تنحو معرفة كيفيّة التّركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى ، وفقاً للمقاييس والقوانين المستنبطة من استقراء كلام العرب " [1] ويستلزم أيضاً أن يستفيد من مرونة اللغة في مطاوعتها للفكر والإبداع ، متى يوظّف هذه المرونة للهروب من دائرة المعياريّة إلى دائرة العدول ، ومن ثمّ الشّعريّة ، وهذا ما أكّده الإمام عبد القاهر الجرجاني إذ يقول : " إنّ الألفاظ لا تفيد حتّى تؤلّف ضرباً خاصّاً من التّأليف ، ويُعمد بها إلى وجه دون وجهٍ من التّركيب " [2] فدلالات المعاني وإيماءاتها تأتي من خلال تجاوز المألوف من التّراكيب اللغويّة ، وأبواب المعاني التي " يمتنع فيها إجراء الكلام على الأصل ، هي أبواب تقوم أساساً على العدول في اللغة عن مستوى استخدامها المألوف " [3] .

وانطلاقاً من هنا فإنّ لغة الأدب وشعريّته تنطلق من هذا المنطق العدولي ، " فمادّة النّصّ الأدبيّ تتشكّل من نظام خارج عن المألوف ، وكلّ ما هو خارج عن المألوف يستوقف دارس النّصّ " [4] ، فالأدبيّة أو الشّعريّة تتبع من معانقة التّراكيب المميزة العناصر الأخرى ، وما يتجلّى عن ذلك من جمالٍ لغويّ من خلال ارتباط مكوّنات السّياق الشّعريّ بطريقة الانتقاء الخاصّ .

---

[1] مفتاح العلوم ، السّكّاكي ، شرح نعيم الزّرزور ، بيروت ، 1983م ، ص75 .

[2] أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلّق عليه محمود محمّد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدّة ، ص4 .

[3] البلاغة والأسلوبيّة، د. محمّد عبد المطلب، مكتبة لبنان – ناشرون ، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر ، لونجمان ، ط1 ، 1994 م ، ص270 .

[4] تأصيل الأسلوبيّة في الموروث النّقدي والبلاغيّ ، مصطفى حميدة ، رسالة ماجستير ، فلسطين ، نابلس ، 2006م ، ص47 .

ويُقصد بالخلق الخاصّ ها هنا المقدّرة على توظيف إمكانات اللغة المعياريّة ، ومن ثمّ ما ينزاح عنها على نحو يقوّي معطيات السّياق، ويمنح الدّلالات داخل هذا السّياق القدرة على التّفاعل لخلق الجماليّ والشّعريّ ، وعلى طريق الإبداع فتفاعل هذه الدّلالات داخل السّياقات يعكس البعد الجماليّ لحركيّة النّحو " فالظّاهرة النّحويّة ليست أداةً أو صورة محسّنة ، ليست زينة أو طلاءً أو تلويناً ، وإنّما هي خالقة لمعناها ، هي موقف حيّ يتفاعل باستمرار مع المواقف الأخرى التي يتضمّنها السّياق " [1] .

وهذه الحركيّة النّحويّة تتجلّى في لغة الإبداع الشّعريّ ، فالشّعر بالمحصّلة هو فنّ استعمال اللّغة ، وحسن توظيفها بما يولّد المعاني ويخصّب الدّلالات .

وهذا يفرض علينا أن ندرس هذا النّمط من اللغة (اللغة الشّعريّة) بالاستناد إلى حركيّة هذا النّحو الذي بُنيت عليه ، والتي تتمظهر على المستوى البلاغي ضمن تقنيّات وفاعليّات متداخلة ومتقاطعة ، وهذه التّقنيّات والفعاليّات هي " التي تعدّل المفاهيم أو تعمل على هدمها أو تخلق منها ما تشاء " [2] .

وسنعمل في هذا الجزء من بحثنا على الخوض في غمار التّحليل النّصيّ مستخدمين هذه التّقنيّات والفعاليات كمداخل إجرائيّة نصيّة في عمليّة التّحليل ، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّنا لا نكتفي بهذه الأدوات في الكشف عن شعريّة النّصّ المتحققة عبر هذه المداخل القائمة على العدول بل نحاول أن نبحث عن تقاطعات هذه التّقنيّات والأدوات مع المكوّنات النّصية الأخرى ؛ إذ إنّ إثبات دور البنى العدوليّة على مستوى التّركيب يكون عمليّةً غير مكتملةٍ إذا ما تمّ دراسة هذه البنى المتمظهرة بقوالبها التي ذكرنا أنّها تقنيّات أسلوبيّة ومداخل إجرائيّة للولوج إلى النّصّ وبيان تأثير العدول في صناعة الشّعريّة دون الاكتراث بما يُكمل حركة هذه التّقنيّات ، فالتّقديم والتّأخير أو الحذف أو الاعتراض أو الالتفات أو الفصل ليست سوى مظاهر لا تؤدّي غرضها إلاّ في خضمّ بحر النّصّ في مكوّناته المتنوّعة .

فالنّظر إلى هذه الأشكال البلاغيّة للعدول التّركيبي في أي تجربة شعريّة ينبغي أن يؤخذ بالحسبان، وكون هذه الأشكال متولّدة عن العدول التّركيبي على المستوى البلاغيّ لا ينفي أنّها في الآن ذاته تراكيب تقوم على وفق بنية صوتيّة وصرفيّة ونحويّة مستقاة من بنية النّصّ

[1] نظريّة اللغة والجمال في النّقد العربي ، د. تامر سلّوم ، دار الحوار ، اللاذقيّة ، ط1 ، 1983م ، ص145 .
[2] المرجع السّابق ، ص155 .

الكبرى ، وعليه فهي ليست سوى جزء من فسيفساء النّصّ الكليّ ولا قيمة لأيّ جزء منها تركيبيّاً أو جماليّاً أو شعريّاً إلاّ في سياق البنية الكليّة للنّصّ .

1- التّقديم والتّأخير :

يعدُّ التّقديم والتّأخير أحد أبرز المظاهر الأسلوبيّة التي يحقّقها العدول في ممارسته على الكلمة ، فالكلمة هي جزء من بنية التّركيب ، تذوب الكلمة في كيميائه عبر تفاعلها مع بقيّة البنى المجاورة ، وفي هذا الفنّ يقوم المبدع بمخالفة تراتبيّة نحويّة معياريّة ، كان من المفترض أن يُبنى النّصّ على أساسها ، فالتّقديم والتّأخير هو عدول على مستوى التّرتيب المعياري لمكوّنات الجملة بنوعيها (الفعلي والاسمي) فالأصل في الفعليّة هو التّرتيب الآتي : فعل + فاعل + متمم ، في حين أنّ الأصل في الاسميّة هي أن يأتي المبتدأ يليه الخبر على النّحو الآتي : مبتدأ + خبر + متمم .

وعليه فإنّ التّقديم والتّأخير هو مخالفة عناصر التّركيب القواعدي الأصلي الأوّل في السّياق ، فيتقدّم ما الأصل فيه أن يتأخّر ، ويتأخّر ما الأصل فيه أن يتقدّم ، والحاكم للتّرتيب الأصلي بين عنصرين يختلف إذا كان التّركيب لازماً أو غير لازم .

فالأصل (الرّتبة المحفوظة) هو النّحو في صورته المعياريّة أمّا العدول الذي يسحب من التّركيب نحويّته فهو محور الاهتمام " لأنّه هو الذي يعطي المتكلّم أو الكاتب أو الشّاعر حريّة في التّعبير " [1] .

وقد نظر البلاغيّون إلى هذا النّمط من العدول القائم على تبديل المواقع للوحدات المعجميّة في البناء التّركيبي على أنّه أحد صور شجاعة اللغة وقوّتها[2] .

وقد فصّل (الجرجاني) في هذه العلاقة النّاشئة عن العدول التّراتبي (التّقديم والتّأخير) ورصد أنواعه وأشكاله وتمظهراته وفوائده المتنوّعة ، فوجد أنّ ثمّة شكلين لهذه الظّاهرة الأسلوبيّة هما :

---

[1] نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثّاني والثّالث للهجرة، د. مصطفى جطل، مطبعة جامعة حلب ، 1980 ، ج498/2 .

[2] الخصائص ، ابن جنّي ، تح: محمّد علي النّجّار ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان، ج362/2 .

أ- **تقديم على نيّة التّأخير:** وذلك كلّ شيء أقررته مع التّقديم على حكمه الذي كان عليه ، وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدّمته على المبتدأ ، والمفعول إذا قدّمته على الفاعل : منطلقٌ زيد ، ضرب عمراً زيداً .

ب- **تقديم لا على نيّة التّأخير:** ولكن على أن تنقل الشّيء عن حكم إلى حكم ، وتجعل له باباً غير بابه ، وإعراباً غير إعرابه ، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كلّ منهما أن يكون مبتدأ ، ويكون الآخر خبراً له . فتقدّم تارة هذا على ذلك ، وأخرى ذلك على هذا ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق ؛ إذ تقول مرّة : زيد منطلق ، وزيد المنطلق ، وأخرى المنطلق زيدٌ [1] .

فيكون لك في ظلّ واحد من هذه الأحوال عرض خاصّ وفائدة لا تكون في الباقي .

إنّ أسلوب التّقديم والتّأخير يتنوّع وتتغيّر دلالته تبعاً لتغيّر السّياق وتنوّع المقام ، فالتّراتبيّة النّحويّة لا يمكن أن يطرأ عليها أي تغيير إلاّ لغاية معنويّة وهدف دلاليّ ، ومن ثمّ لغاية شعريّة وجماليّة على المستوى العميق من الدّلالة .

وعليه فإنّ التّقديم والتّأخير لا ينحصر دوره كما ذهبت بعض الآراء المحدودة في إبراز العناية بالمتقدّم فحسب ، بل هو أيضاً يكمن في كونه إجراء بنيويّاً اختياريّاً ينفتح على جملة من المعاني النّحويّة الدّقيقة التي يجد فيها المتكلّم البيان الكافي بما يحصل به التّفاوت والتّباين ، ويجد فيها السّامع الفهم الدّقيق والمتعة الرّائعة ، والخروج عن رتبة الجملة " يمثّل نوعاً من الخروج عن اللغة النّفعيّة إلى اللغة الإبداعيّة " [2] ، ومن هذا الإجراء القائم عن خلخلة الوضع التّراتبي للجملة تنتج عمليّة التّجاذب بين الثّابت الذي يمثّل التّرتيب المعياري ، والمتغيّر الذي تمثّله عمليّة التّقديم والتّأخير ، وهذا التّجاذب يحفّز الذّهن المتلقي إلى الكشف عن الغايات والدّلالات والجماليّات والأنساق عبر التّحليل ، والبحث عن البنية الفكريّة التي بنت هذه العمليّة الأسلوبيّة ، وعليه فالتّقديم والتّأخير بنية فكريّة قادرة على احتواء عمق فكريّ من جهة وتجربة شعوريّة من جهة أخرى " فالتّقدّم له درجات يحكمها العقل ؛ كتقدّم العلّة على المعلول في مثل تقدّم الكون على الكائنة ، والعلم على العالميّة ثمّ التّقدّم

[1] ينظر : دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، قرأه محمود محمّد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص106-107 .
[2] البلاغة والأسلوبيّة، د. محمّد عبد المطلّب، ص329 .

بالذّات " [1] ، ولكنّ ليس العقل هو المتحكّم الوحيد بالخلق والتّلقّي الشّعري وحدّة فالعاطفة أيضاً تمارس دورها في هذا السّياق ولذلك يصبح " من المثمر على المستوى البلاغيّ أن نقيم تمييزاً بين النّظام العقلي والنّظام العاطفي للكلمات " [2] .

فالمبدع يُشبع النّصّ من فكره وشعوره ، ويمارس عبر تقاطعات فكره وخياله وشعوره عنفه اللطيف تجاه تراتبيّة اللغة في أشكال متنوّعة أبرزها التّقديم والتّأخير .

وبناء على كلّ ما تقدّم نقف عند ظاهرة التّقديم والتّأخير بوصفها من أهمّ الظّواهر الأسلوبيّة المؤثّرة في بناء النّصّ وتحقيق سمته الشّعريّة ، لما تمنح الشّاعر من مرونة لغويّة ، وهامش من الحريّة يسمح له بتغيير رتب الكلام لتخدم أبعاد نصّه الفكريّة والجماليّة وتعدّ هذه الظّاهرة كما ذكرنا من أبرز ظواهر العدول في التّركيب اللغويّ ، وهو يقوم بوظيفة جماليّة باعتباره ملمحاً أسلوبيّاً خاصّاً .

إنّ أهميّة التّقديم والتّأخير تكمن في دورها في تخصيب الوظائف النّحويّة للاختيارات المتحقّقة في كيفيّات الصّياغة التّصويريّة ، ولا نقصد بالتّقديم والتّأخير هنا فقط تلك الظّاهرة اللغويّة ؛ إذ إنّها من أكثر الظّواهر استجابة لمتطلّبات نفسيّة وفكريّة تقف وراءها فتحرّكها نحو هذه الصّياغة أو تلك ، لتمثّل التّجربة بأبعادها المختلفة .

وقد أدرك الجرجاني أهميّة هذه الظّاهرة ، وأعلى من شأنها ولاسيّما في ميدان الشّعر حيث رأى فيها باباً " كثير الفوائد جمّ المحاسن واسع التّصرّف وبعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي لك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثمّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيئاً ، وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان " [3] .

ومن هذا القول نستطيع أن نتبيّن الفهم العميق للجرجاني لماهيّة هذه الظّاهرة وتأثيرها في المتلقّي على المستوى الموسيقي والدّلالي والشّعريّ ، فالجرجاني يُدرك أسلوبيّة هذه الظّاهرة ومراميها وأساس الكشف عن جمال الشّعر عبر تقنيّات اللّغة .

---

[1] المرجع السّابق ، ص273 .

[2] بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، د. صلاح فضل، مجلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ع 164 ، أغسطس–آب ، 1992م ، ص78 .

[3] دلائل الإعجاز ، الجرجانيّ ، ص106 .

وقد قادت قراءة روميّات أبي فراس الحمداني إلى الكشف عن أنواع محدّدة من التّقديم والتّأخير ذات تواتر مختلف في تجربة العلامة وهي :

أ- التّقديم الاسمي (إبراز الأهميّة للمقدّم) :

عندما يسعى الشّاعر لإبراز الأهميّة عبر تقديم الحال لا يُقصد بذلك تخصيص هذه الأهميّة بشخص أو بفعل بل يُراد من خلالها تقديم بنية فكريّة أو ثقافيّة أو دلاليّة لغايتين : الأولى : عصف ذهن المتلقّي وشغله بالمتقدّم ، وسعيه للكشف عن الغاية من تقدّمه ، والثّانية تعميم تفوّقه على المتأخّر بحكم التّنكير الذي يرافق البنية التّشكيليّة للحال ، ومن يقرأ روميّات أبي فراس الحمداني يقف مباشرة بوضوح على ظاهرة تقديم الاسم ، وتقديم الاسم إنّما يتمّ لغايات دلاليّة متنوّعة أبرزها يُستقى من التّوتر النّاتج من التّقابل بين دلالة الثّبات التي تفرضها الاسميّة ، ودلالة التّحوّل الذي تحمله في أطوائها عمليّة التّقديم والتّأخير .

ونقرأ هذا التّوتر بين دلالتي الثّبات والتّحوّل ضمن أساليب متنوّعة في روميّات أبي فراس، ومن أبرزها أسلوب الاستفهام ، على نحو قوله [1] (من مجزوء المتقارب) :

وَمَـــــاذَا القُنُـــــوطُ الـــــذِي أَرَاهُ فَأَسْتَشْـــــــــــــــــعِرُ ؟

إذ يُقدّم الشّاعر في هذا البيت اسم الاستفهام (ماذا) على المبتدأ المؤخّر (القنوط) ؛ ليبرز دلالة لتقرير الفاعل وإبرازه وإظهار أهمّيّته عبر تقديم السّؤال عنه ، فمن المعلوم أنّ اسم الاستفهام يُضمر فعلاً محذوفاً هو (اسأل) ، والسّؤال لا ينمّ إلاّ عمّا يُثير الأهمّيّة ، والأهمّيّة هنا قد تحمل معنيين ، فمنها : أهمّيّة لما هو إيجابي يُراد إبرازه ، ومنها أهمّيّة لما هو سلبي يُراد استنكاره ، وهذا ما يُريد الشّاعر إبرازه في سياق هذا البيت ، فالشّاعر يُقرّر أنّ (القنوط) هو الذي يحفّزه على نظم الشّعر ، وإذا كان (القنوط) ؛ أي التّراخي والاستسلام سبب نظم الشّعر ، فمن الطّبيعيّ ومن البديهي أن يكون هذا الشّعر استنكاراً على مصدر هذا القنوط وعلى ممارسيه، ولعلّ تعريف المؤخّر (القنوط) بما يوحيه هذا التّعريف من التّحديد والتّعيين ، يُؤكّد غاية التّقرير ؛ أي تقرير أهمّيّة المُقدّم (الاستفهام الاستنكاريّ) الملائم لسياق التّراخي والقنوط

[1] ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح د. خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1414 هـ – 1994 م ، ص166 .

القنوط : اليأس .

المُسبِّب للشّعر الذي كان سلام الشّاعر في محاولته استفزاز مصدر هذا القنوط ، ودفعه نحو التّحرّك من أجل تحريره .

وقد أكّد الجرجانيّ الغرض من تقديم الاسم في أسلوب الاستفهام في قوله : " وإذا قلتَ : أأنتَ فعلتَ ؟ فبدأت بالاسم كان الشّكّ في الفاعل من هو ، وكان التّردّد فيه ، واعلم أنّ هذا الذي ذكرت لك في الهمزة ، وهي للاستفهام قائم فيها إذا هي كانت للتّقرير ، فإذا قلت : أنت فعلت ذاك ؟ كان غرضك أن تقرّره بأنّه الفاعل " [1] .

ويُؤكّد الحمداني عبر تقديم أسماء الاستفهام وتأخيرها في غير موضع من ديوانه استنكاره وتحفيزه لسيف الدّولة لتغيير سلوكه تُجاه سجنه وأسره ، فعندما يقول [2] (من مجزوء الكامل) :

أَيْـــــنَ المَحَبَّـــــةُ ، وَالـــــذِّمَا مُ وَمَـــا وَعَـــدْتَ مِـــنَ الجَمِيْـــلِ ؟

فإنّما يستخدم تقديم اسم الاستفهام (أين) ويعدل به عن دلالة السّؤال والاستفهام إلى دلالة النّفي ، والنّفي ها هنا تعريض واتّهام بادّعاء ، ففقدان هذه المحبّة وذاك الذّمام وتلك الوعود هو المحرّك للاستفهام الذي أُريد منه ذمّ سيف الدّولة والتّعريض به ، فعندما يُسأل عن هذه الأمور التي أُخّرت في البنية التّرتيبيّة للجملة إنّما يُراد منها إبراز انعدامها ، وانعدامها يشي بعدم صدق مَن حاول بثّها أو ادّعى امتلاكها ، ولعلّ أبا فراس يقول لسيف الدّولة : أنت لا تحمل لي شعور الحبّ ولا تفي بوعودك ، فكان الاستفهام أخفّ وطأةً من النّفي الصّريح ، وبذلك يترك الحمدانيّ طريقاً للعودة ، فلا يصدح بالذّمّ ، ولكنّه يكتنزه في طاقات تقديم الاستفهام ، ويستفيد من نسقه الظّاهر الموحي بالحاجة إلى سيف الدّولة ، فتقديم الاستفهام هنا انطوى على نسقين : أحدهما ظاهر سطحي يُشير إلى ضعفٍ لرجلٍ أسير (الشّاعر) ، وحاجة إلى من يحمل مشاعر حبٍّ قادرة على مساعدته الفعليّة ، وهنا يظهر الشّاعر ضعيفاً ، بَيدَ أنّ المعنى الثاني العميق يجرّد الآخر (سيف الدّولة) من صفات أهمّها الصّدق في الوعود والمحبّة ، وهذا يشي بإمكانيّة استغناء الشّاعر عن هذه الصّفات على اعتبار أنّها صفات غير موجودة ، وهنا ينتقل

[1] دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ص111 .

[2] ديوان أبي فراس الحمداني ، ص274 .

الذّمام : العهد والأمان والحرمة .

الشّاعر من ميدان الضّعف واستجداء العطف إلى ميدان القوّة والقدرة على التّحمّل ، فضلاً عن مواجهة سيف الدّولة ، وهنا تنتقل صفة الضّعف من الشّاعر إلى سيف الدّولة .

ومن ذلك أيضاً قوله مُجرّداً سيف الدّولة من كلّ قيمة ورفعة ، مُستغلاً قدرة تقديم الاستفهام عبر اسمه (أين) على منح الدّلالة ازدواجيّة ؛ إحداها تُؤمّن له دلالات الاستعطاف ، وشحذ همّة المُستعطف (سيف الدّولة) ، والأخرى تُؤمّن له دلالات القوّة التي تساعده وتقوّي موقفه ، وتُغطّي ضعفه وتبرز حقيقة موقفه من سيف الدّولة حين يقول [1] (من المنسرح) :

أَيْــنَ المَعَــالِي التــي عُرِفْــتَ بِهَــا تَقُولُهَـــــا دَائِمَـــــاً وَتَفْعَلُهَـــــا ؟

إنّ تقديم الاستفهام (الخبري) على المبتدأ هو نقل للمعالي (المبتدأ) من صفة تستدعي تعظيم من يملكها وتضعه في المقدّمة إلى صفة مسلوبة تنقل من سُلبت أو فُقدت من الابتداء إلى التّأخير ؛ أي تأخير الفاعليّة ، بل وعدمها تماماً ، وهذا ما تدعمه صيغة (المبني للمجهول) التي وقع فيها الفعل (عُرفت) في صيغة الماضي ، وعليه جمع الشّاعر في هذه الصّيغة دلالة انعدام الفاعليّة ؛ إذ لم يعد ثمّة من يعرف سيف الدّولة بالمعالي ، فضلاً عن كونها وبفضل الصّيغة الماضوية أصبحت صفة منقضية الفاعليّة ، منحصرة في الماضي ، فالمعالي التي وردت بالتّعريف ، ومن ثمّ توكيد التّعريف ونسبته عبر علاقة (الصّلة بالموصول) التي عُرّفت بها ، قوّت دلالة الذّمّ ، وأضحت حالة الانتقال الذي شهدته هذه المعالي من كونها صفة (سيف الدّولة) وسمته ، إلى كونها صفة فُقدت به ، ولا يفوت شاعرنا في هذا السّياق استغلال إمكانيّات اللّغة عندما يضع (سيف الدّولة) على المحكّ بوصفه لتلك المعالي بأنّها فعل ، وليسَت قولاً عندما يقول : (تقولها دائماً وتفعلها) فيجمع بين تحفيز وذمّ ؛ إذ إنّ السّؤال عن معالٍ كانت تُقال وتُفعَل ويُعرف بها إنّما يُشير إلى فقدانها ، فيتحوّل تقديم الاستفهام إلى أداة نفي تحمل مكنونات الغضب التي بثّها الشّاعر بأسلوب لغويّ بلاغيّ أزاح فيه الاستفهام من دلالات الاستفسار إلى دلالات تناسب سياق العتب واللوم .

وعليه ، فإنّ العدول التّركيبيّ الذي تبدّى ها هنا بتقديم اسم الاستفهام قد منح التّركيب الشّعريّ ازدواجيّة دلاليّة تناسب أسيراً فارساً ، عبر توتّر ضدّي يحدث بين قوّة ظاهرة تستدعيها

[1] ديوان أبي فراس الحمداني ، ص265 .

المعالي : الفِعال والأقوال الحميدة .

الفروسيّة ، وضعف باطن يستدعيه الأسر ، ويتصارع هذان المتضادان فينتصر أحدهما على الآخر حيناً ، وينهزم حيناً آخر في حالة شعوريّة يشوبها المدّ والجزر ، وتتنازعها دلالتان مزدوجتان ، كما تبعث برسالتين ذات دلالتين متضادتين لسيف الدّولة ، تظهره حيناً بأنّه الأمل بالتّخلّص من السّجن ، وتظهره حيناً آخر بمظهر المُقصّر المولّد لليأس بعد الأمل . إنّها حالة وجدانيّة لا تخلو من تعقيد يبيّنه صراع المتناقضات الذي تولّدت دلالاته عبر العدول التّركيبيّ المُتجسّد بالتّقديم والتّأخير .

وإذا كان تقديم الاستفهام (اسم الاستفهام) قد ولّد ما ولّده من دلالات متقابلة ، فإنّ أشكال التّقديم والتّأخير الأخرى في سياق بنية الإسناد الاسمي لا تقلّ أهمّيّة من حيث تفتيق الدّلالات ، ومنح البنية النَّصّيّة التي مُورست عليها علاقات العدول التّركيبيّ شعريّة خاصّة ، ومن أشكال هذا التّقديم والتّأخير تقديم المُسند إليه (الاسمي) على نحو قوله في إحدى قصائده[1] (من الطّويل) :

وَأَنْـــتَ الـــذِي عَرَّفْتَنِـــي طُـــرُقَ العُـــلا

وَأَنْـــتَ الـــذِي أَهْـــدَيْتَنِي كُـــلَّ مَقْصِـــدِ

وَأَنْـــتَ الـــذِي بَلَّغْتَنِـــي كُـــلّ رُتْبَـــةٍ

مَشَـــيْتُ إِلَيْهَـــا فَـــوْقَ أَعْنَـــاقِ حُسَّـــدِي

يُخفِّف الشّاعر في هذين البيتين من وطأة الصّراع النّفسيّ الذي يعيشه بين فروسيّته التي لم يكترث سيف الدّولة لوجودها في السّجن ، وبين ضعفه في الأسر ، ويحاول في هذا السّياق أن يخوض في طريق آخر يستغل فيه إمكانيّات اللّغة الشّعريّة عبر العلاقات النَّصّيّة، وفي مقدّمتها علاقة العدول التّركيبيّ التّقديم والتّأخير ، فيُقدّم المُسند إليه (الضّمير أنت) العائد إلى سيف الدّولة على نحوٍ مُكرَّرٍ ، مُخبراً عن هذا الضّمير بجُملٍ يُبرز فيها فاعليّة سيف الدّولة ومفعوليّته هو تُجاه هذه الفاعليّة ، وتقديم المُسند إليه (أنت / سيف الدّولة) يكتنز في الظّاهر دلالة التّعظيم ، وصبّ التّركيز على شخصيّة الممدوح (سيف الدّولة) ، ومن ثمّ فإنّ الإخبار عن فاعليّة هذا المُسند إليه (أنت / سيف الدّولة) بجُمل يُمثّل فيها الشّاعر بضمير المُتكلّم المُرتبط دلاليّاً بالمفعوليّة في قوله (عرفتني ، أهديتني ، بلغتني) يجعل الشّاعر مديناً لسيف

[1] ديوان أبي فراس الحمدانيّ ، ص98 .

الدّولة بكلّ ما أعطاه ، فهل كانت الغاية إبراز عظمة ما قدّمه سيف الدّولة للشّاعر ، أم أنّ ثمّة غاية دلاليّة تدعم الغاية السّطحيّة وتقويّها في سبيل إثارة البركان الانفعاليّ لدى سيف الدّولة وتحفيزه على مدّ يد العون للشّاعر وإنقاذه من الأسر ؟! .

إنّ الغاية الدّلاليّة الثانية التي دعمت عمليّة تعظيم سيف الدّولة تكمن في أنّ هذا التّقديم يضع سيف الدّولة على المحكّ ، فمن مارس العطاء ، ومنح الرّفعة والرّتبة لا يجدر به التّخلي ، فالتّعظيم ها هنا غايته التّحضيض وليس الاستعطاف ، ذلك أنّ الاستعطاف قد يُظهر ضعف الشّاعر الفارس وحاجته ، هذا ما أراد كتمه في روميّاته جميعها ، وإنْ ظهرت في أطواء تراكيبه الشّعريّة .

ومن الأشكال المهمّة للتّقديم والتّأخير (تقديم الخبر) بغية تشويق المُتلقّي لأصلٍ ، فالعدول ها هنا يصيب بنية الجملة الخبريّة التي كان أصلها القائم على ذكر المبتدأ يثير التّشويق للخبر ، فانعكس هذا الدّور بفضل العدول ، وانتقلت فاعليّة التّشويق من المبتدأ إلى الخبر .

يقول الخطيب القزوينيّ في باب تقديم الخبر ، مُبرزاً دور تقديمه في تشويق المُتلقّي " أمّا تقديمه فلكون ذكره أهمّ ، إمّا لأنّه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ، وإمّا ليتمكّن الخبر في ذهن السّامع ؛ لأنّ في المبتدأ تشويقاً إليه " [1] .

ولقد قادتنا دراسة قصائد الأسر والسّجن في ديوان أبي فراس إلى ملاحظة شيوع هذا النّمط من التّقنيّة الأسلوبيّة على مساحة محدّدة من هذه القصائد .

يقول أبو فراس في إحدى قصائده يصف أسره ، ويذكر أهله ، ويتشوّق إلى أحبابه [2] (من مجزوء المتقارب) :

لأَيِّكُـــــــــمُ أَذْكُـــــــــرُ ؟ وَفِـــــي أَيُّكـــــمْ أَفْكِـــــرُ ؟

وَكَـــمْ لِـــي عَلَـــى بَلْـــدَتِي بُكَـــــــاءٌ ومُسْـــــــتَعْبَرُ ؟

---

[1] شروح التّلخيص في علوم البلاغة ، للإمام جلال الدّين محمّد بن عبد الرّحمن القزويني ، شرحه وخرّج شواهده محمّد هاشم دويدري ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1402 هـ – 1982 م ، ص40–41 .

[2] ديوان أبي فراس الحمداني ، ص166–167 .

مُستعبر : محزون يذرف دموعه . أذخر : أخبّئ .

فَفِـــــي حَلَـــــبٍ عُـــــدَّتَي وَعِـــــــزّي وَالمَفْخَـــــــــرُ
وَفِـــي مَنْـــبَجٍ مَـــنْ رِضَـــا هُ أَنْفَـــسُ مَـــا أَذْخَـــرُ
بَلـــــى ، إِنَّ لِـــــي سَـــــيّداً مَواهِبُـــــــــهُ أَكْثَـــــــرُ
وَإِنّـــــي غَزِيْـــرُ الـــذّنوبِ وَإِحْسَـــــــانُهُ أَغْـــــزَرُ
ذُنُـــــوبِي بِهَـــــا كَثْـــــرَةٌ وَغُفْرَانُـــــــــهُ أَكْثَـــــــرُ
بِـــــــذَنْبِيَ أورَدْتَنِـــــــي ومِـــــنْ فَضْـــــلِكَ المَصْـــــدَرُ

يستثمر الشّاعر إمكانيّات العدول ودلالاته الشّعريّة في النّصّ للتّعبير عن حالةٍ شعوريّةٍ في غير موضعٍ من النّصّ، منها: (لي على بلدةٍ بكاء) ، (ففي حلبٍ عدّتي) ، (في منبجٍ أنفسي ما أذخرُ) ، (إنّ لي سيّداً) ... فتقديم الخبر (شبه الجملة) في الجُمل السّابقة (لي ، في حلب ، في منبجٍ) شكّل المُرتكز الذي بنى الشّاعر عليه الحدث الشّعريّ، كما أنّه شكّل بداية رسم معالم التّجربة الشّعوريّة، وفيض الشّوق الذي يعيشه الشّاعر ، وتلمح في هذه اللوحة ألواناً من الدّلالات يمكن تقسيمها إلى نوعين ، اللون الأوّل يوضح مكانة الأمكنة التي سبّب الأسر بعده عنها ، والتي كانت بالنّسبة له أمكنة ذات خصوصيّة محدّدةٍ ، والتّشويق الذي يحمله تقديم شبه الجملة (الخبر) المُرتبط بهذه الأمكنة (في حلب) ، (في منبج) ينطلق من جوهر خصوصيّة هذه الأمكنة ؛ إذ إنّ المُتلقّي ينتظر ويتشوّق لمعرفة ماذا يوجد في حلب وفي منبج ، فيأتي المبتدأ (عدّتي ، أنفس) فالعدّة تشمل دوائر القوّة ، وقد استمدّها الشّاعر من أهل حلب، وهـــــو الآن وبســـــبب الأســـــر يفتقـــــدها، وهـــــذه العـــــدّة (الشّعب الحلبيّ) الذي كان يمنح الشّاعر القوّة تقابلها نفوس سخيّة كريمة في منبج ، وبذا تكتمل ألوان المحبّة التي افتقدها الشّاعر بفقدانه ، هذان الأمران اللذان كانا محوري الوجود الوجدانيّ والاجتماعيّ والنّفسيّ للشّاعر ، وتشويق الشّاعر تُجاه ما يحمله المبتدأ المؤخّر من دلالات ترافق في إعلان شأن المُقدّم وجعله أيقونةً لفاعليّة المؤخّر .

وعليه ، أصبحت منبج أيقونة الارتياح النّفسيّ ، والملجأ الاجتماعيّ التي مُنحت للشّاعر بفضل نفاسة نفوسِ أهلها .

أمّا حالات التّقديم والتّأخير الأخرى فإنّها تعكس حالةً شعوريّة مكمّلة للحالة الشّعوريّة الأولى ، ولكنّها تتخصّص في سيف الدّولة ، وهنا نلمح أنّ الشّاعر يُقدّم ذاته في التّركيب (أنّ

لي سيّداً) ، على الرّغم من أنّه يختار لإبراز شخص سيف الدّولة كلمة (سيّد) ، وهنا نقرأ تفاخراً ضمنيّاً للشّاعر ، وتفضيلاً لنفسه على سيف الدّولة ، فالاختيار للفظ (سيّد) جاء بلفظ التّنكير ، وتقديم ضمير المُتكلّم في الخبر المُقدّم وتأخير اللفظ العائد إلى سيف الدّولة مع تنكيره يوحي بنسقٍ ظاهر هو التّبعيّة والولاء للسّيّد (سيف الدّولة) ، كما يُضمر نسقاً آخر هو الإعلاء من شأن الذات ، والتّقليل من شأن سيف الدّولة ، وإظهار الارتباط الذي تحوّل إلى قسري ، بعد عدم استجابة سيف الدّولة ومعه تحوّل السّيد من التّعريف إلى التّنكير .

إنّ التّقديم والتّأخير في هذا السّياق كان وسيلةً أسلوبيّةً ، أفاد الشّاعر من إمكاناتها النَّصّيّة لتقديم حالةٍ شعوريّة محدّدة المعالم ، ولتغليف ذمٍّ وتقريع لسيّدٍ (سيف الدّولة) ، كان بالنّسبة له الأمل الوحيد بالتّخلّص من حالة الأسر ، فأصبح مصدر اليأس الأوّل بعد التّخلّي المباشر عنه .

ومن هنا وجد شاعرنا ألاّ منقذ له في كربته وسجنه إلاّ بالله، فهو الذي يتكفّل بخلاصه ، وهو الذي يُشعره بوجوده وكيانه ، يقول الحمدانيّ [1] (من مجزوء الرّمل) :

أَنَـــا إِنْ عَلَّلْـــتُ نَفسِـــي بِطَبِيـــــــــبٍ أَوْ دَوَاءِ

عَـــــالِمٌ أَنْ لَـــــيْسَ إِلاَّ بِيَـــــدِ اللهِ شِـــــفَائِي

يستخدم الشّاعر التّقديم في هذا السّياق على نحوٍ مُخالفٍ لما ذكر سابقاً ، فتقديم الضّمير (الفاعل) على أداة الشّرط والفعل لم يُرد الشّاعر من خلاله ها هنا إبراز أهمّيّته وإفراد نفسه وتمييزها عمّا سواها ، بل أراد إطلاق العنان لها بعد أن وجدت وأدركت المُخلّص الحقيقيّ لها ، فالتّقديم اقترن بالشّرط ، وهذا الاقتران يُؤكّد ألاّ وجود للأنا الشّاعرة إلاّ بتحقّق الشّرط ، هذا الشّرط الذي بُني على نسقٍ نحويّ مُحدّد ، يبدأ بأداة الشّرط (إنْ) يليها فعل الشّرط في صيغته الماضويّة المُشيرة إلى قِدَم المعاناة ، وقِدم البحث عن مُعلِّلٍ ومواسٍ للأنا المُتمثّلة في الضّمير المُتكلّم (الياء) في الدّالّ (نفسي) ، ثمّ تأتي ماهيّة المُعلّل الذي يُنشده الشّاعر والمُتمثّل بالدّالين المُتعاطفين (طبيبٍ ، أو دواءٍ) في صيغة التّنكير لإطلاق الدّلالة والتّعميم ، فالمُعلَّل المنشود طبيب ، ومُخلّص عامّ ، ودواء شامل لكلّ ما تعنيه النّفس المنشود مواساتها وتعليلها ، ثمّ يأتي أسلوب القصر المقترن بالنّفي لتخصيص كلّ ذلك الحشد المُعمّم من سمات المُعلّل الطّبيب الدّواء في معرّفٍ مُحدّدٍ مُخصّصٍ قادر على جمع هذا الحشد من الإمكانيّات (الله) ،

[1] ديوان أبي فراس الحمدانيّ ، ص20 .

ولينفي عمّا سواه مهما بلغ قدره في إشارة ضمنيّة إلى سيف الدّولة القدرة على مواساته أو مساعدته ، أو معالجة ما يعتري نفسه من معاناة .

ويُؤدّي التّصوير البيانيّ دورهِ في تخصيص الدّلالة في التّعبير الاستعاري (يد الله) ، فالتّجسيد الحاصل ها هنا إنّما أُريد منه تخصيص الشّفاء العائد إلى الذّات الشّاعرة في الدّال (شفائي) ، المقترن بياء المُتكلّم لتشكيل الرّابط المباشر بين الله المُنقذ الوحيد والذّات الشّاعرة ، فكأنّ يد الله (الطّبيب الدّواء الوحيد) تمتدّ إلى الذّات الشّاعرة المريضة التي لم ولن ينفعها طبيب سواه ، فامتداد اليد وتجسيدها ، وتحقيق فاعليّتها (تحقيق جواب الشّرط) هو الوسيلة الوحيدة لبروز (الأنا) المُقدّمة في أوّل المقطع الشّعريّ ، فالأنا أخذت مكانها في السّاحة الدّلاليّة ضمن عمليّة التّقديم والتّأخير ، عندما أراد الشّاعر أن يعزلها عن كلّ ما نقلها إلى دائرة الخيبة ، وينقلها إلى دائرة الأمل بفعل وجود المنقذ (الله) .

ب- التّقديم والتّأخير في الجملة الفعليّة :

يرتبط التّقديم والتّأخير ارتباطاً وثيقاً بالنّحو "فالعلاقات النّحويّة كثيراً ما تُؤثّر في طبيعة التّقديم والتّأخير، وفي طبيعة ما ينتج عنها من إيحاءات ودلالات جديدة " [1]، وعليه فإنّ موقع الوحدة المعجميّة في الجملة محكوم بعلاقة نحويّة/دلاليّة تفرضها الوظيفة الإفهاميّة [2] للخطاب ، وأيّ تغيّر في موقعها سيُؤدّي إلى أحد أمرين : إمّا تعطيل الوظيفة الإفهاميّة ، وبالتّالي إلغاء مفهوم الخطاب وسيلة تواصل ، أو إنتاج دلالة جديدة تغني الدّلالة الأولى وتنوّعها ، وقد تتغيّر طبيعة الخطاب بهيمنة وظائف جديدة غير الوظيفة الإفهاميّة في مقدّمتها الوظيفة الشّعريّة ، ولعلّنا نستحضر هذا الفهم في هذا السّياق لتأكيد هذا التّنوّع الدّلاليّ والانتقال من وظيفة التّواصل والإفهام التي تتحكّم فيها بنية القلب (التّقديم والتّأخير) ؛ إذ إنّ الدّلالة النّاتجة في دائرة التّقديم والتّأخير على المستوى الفعلي ناتجة من طبيعة العلاقات النّحويّة المختلفة في كلّ شكل من أشكال الإسناد الاسميّ أو الفعليّ الخاضعَين للعدول في البنية الكلّيّة للخطاب .

---

[1] الانزياح في التّراث البلاغيّ والنّقديّ ، د. أحمد ويس ، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب ، دمشق ، 2004 م ، ص173 .

[2] يُنظر : قضايا الشّعريّة، رومان ياكبسون، ترجمة محمّد الولي ومبارك حنون، دار توبقال ، المغرب ، ط1 ، 1988، ص29 .

وهنا نقرأ بنية العدول التّركيبيّ الكامنة في التّقديم والتّأخير على مستوى الإسناد الفعليّ ، مُتتبّعين أنماط الدّلالات النّابعة عن هذا النّمط من العدول ، ودور هذه الدّلالات في تحقيق المنشود منها سواء على مستوى التّعبير عن الحالة الشّعوريّة والنّفسيّة من جهة ، ومستوى صناعة الوظيفة الشّعريّة للنّصّ المُتضمّن هذه الحالات من التّقديم والتّأخير ، ولا نكتفي في هذا السّياق بتتبّع مواطن هذه البنية العدوليّة منفردةً فحسب ، بل نبحث في تعالقاتها مع البنى الأخرى وارتباطاتها مع هذه البنى في خلق بنية شعريّة جديدة تلائم السّياق والمُقتضى المقامي المُتحكّم في البنية النّصّيّة .

يقول أبو فراس الحمداني [1] (من الطّويل) :

أَرَانِـــي وَقَـــومِي فَرَّقَتْنَـــا مَـــذَاهِبُ

وَإِنْ جَمَعَتْنَـــا فِـــي الأُصُـــولِ المَنَاسِـــبُ

فَأَقْصَـــــاهُمُ أَقْصَـــــاهُمُ مِـــــن

مَسَـــــــــــــــــــــــاءَتِي

وَأَقْـــرَبُهُمْ مِمَّـــا كَرِهْـــتُ الأَقَـــارِبُ

نَســـيبُكَ مَـــنْ نَاسَـــبْتَ بِـــالودِّ قَلْبَـــهُ

وَجَـــارُكَ مَـــنْ صَـــافَيْتُهُ لا المُصَـــاقِبُ

يبدأ الخرق المباشر للّغة منذ المطلع ؛ إذ نقف مباشرة على حالةٍ من العدول عن المعيار النّحويّ في البنية الإسناديّة الفعليّة في قول الشّاعر (فرّقتنا مذاهب) ؛ إذ يُقدّم المفعول به المُتمثّل بضمير الجماعة الدّالّ على المُتكلّم (نا) المُرتبط مباشرة بالفعل الماضويّ في دائرة تعبيره عن العمق السّحيق المُتحقّق لهذا الفراق على الفاعل (مذاهب) ، ويدخل المُركّب الذي خُرق معياره النّحويّ في دائرة البنية التّصويريّة ليحمل بذلك تأثيرين شعريّين أحدهما ناتج من العدول التّركيبيّ المُتحقّق في بنية التّقديم والتّأخير ، والآخر ناتج من البنية الاستعاريّة التي تشكّلت بها بنية التّقديم والتّأخير ، وما تملكه هذه البنية من مقدرة أسلوبيّة على عرض البنية الفكريّة المُتحقّقة وما تكتنزه من دلالات ظاهرة ومضمرة ، فالشّاعر إذ يُقدّم المفعول به (نا)

[1] ديوان أبي فراس الحمداني ، ص44-45 .

الدّالة على المُتكلّم يُحقّق عبر هذا الاختيار لرتبة المفعوليّة غاية دلاليّة ، تبرز واضحة في تصوير حالٍ مزريةٍ وصل الشّاعر إليها مع قومه ، فالفرقة باتت مسيطرة ، وباتت تحتلّ الميدان الفكريّ للشّاعر ، ولم يكن استخدامه ضمير الجماعة المُتكلّم وسيلة لإعلاء شأن هذه الشّجاعة ، بل على العكس تماماً أراد تصوير السّقوط الجماعيّ للمجتمع الذي كان يفخر يوماً بانتسابه إليه، وهو ها هنا قد وضّح موضعاً يظهر حقيقة علاقته به على نحو لم يعد يكترث فيه الشّاعر لسبب الفراق ، ومن هنا كان لتعريف المتفرّقين عبر الضّمير تحديد لهم ، وتعرية واضحة حملها هذا التّعريف .

وبالمقابل جعل سبب الفراق (مذاهب) نكرةً غير محدّدة في محاولة منه لتأكيد أنّ كشفه حقيقة قومه التي قادت إلى فرقته عنهم (في أسره) أكثر أهمّيّة وأكثر تأثيراً من السّبب الذي أدّى إلى هذا الفراق .

ولا يغادر الشّاعر في هذا السّياق نفَسَ الكبرياء والزّهوّ ، ومحاولة الظّهور بمظهر القويّ غير المُتأثّر ، هذا المظهر الذي يُخفي في أطوائه وتحت غبار كبريائه ضعفاً ، وهذا الزّهوّ والكبرياء نجده أيضاً في التّركيب الذي سبق التّركيب العدوليّ في قوله (أراني وقومي) ؛ إذ إنّ الشّاعر يخلق ثنائيّة ضدّيّة بين الفرد والجماعة ، ويضع نفسه مفرداً في مواجهة الجماعة ، ووضع النّفس على هذا النّحو إنّما أُريد منه إبراز القوّة والكبرياء تُجاه عمليّة الفراق ، فالشّاعر وإنْ كان يشير إلى الهوّة التي فرّقته عن قومه ، كان يضع نفسه المفردة في مواجهة الجماعة ، ونراه يُحمّل نفسه سمات القوّة في المواجهة وعدم الاكتراث إلى المواجِه (القوم) ، وهذه اللامبالاة التي خلقها الشّاعر عبر عمليّة التّقديم والتّأخير بغية إبراز القوّة والكبرياء يدعمها في حالة تقديم وتأخير ثانية في البيت ذاته ؛ إذ يُقدّم مرّة أخرى الضّمير الدّالّ على الجماعة الواقع في رتبة المفعوليّة المقترن بالفعل الماضي (جمع) على الفاعل (مناسب) ، فالفرقة التي تحقّقت جعلت الرّابط النّسبيّ الذي يجمع الشّاعر بقومه فاعلاً مؤخّراً ؛ أي غير ذي أهمّيّة ، وقد أتاح تقديم (نا) العائدة إليه في حضوره مع قومه أن يخلق حالةً ضدّيّة بين قديم وحديث ، ليظهر عمليّة الكشف التي أصابها في أسره ، والتي أوضحت له حقيقة الأمور ، هذا التّقابل بين ماضٍ بعيد ، كان فيه اجتماع القوم والشّاعر بعلاقة النّسب ، وماضٍ قريب تحقّق فيها الهوّة والانقطاع بين الشّاعر وقومه، ويلعب التّضاد المباشر بين لفظي (فرّق ، جمع) دور المحرِّك للفجوة التّوتّريّة بين الحالتين المذكورتين سابقاً ، فيستغلّ الشّاعر إمكانيّاتٍ متنوّعة في اتّجاهاتٍ ثلاثة: الاتّجاه الأوّل يكمن في عمليّة التّقديم والتّأخير في التّركيبين المتقابلين (فرقّتنا مذاهب) ،

(جمعتنا مناسب) ، فالمفعول المُقدّم الحاضر في كلا التّركيبين يعود إلى الشّاعر في اجتماعه مع قومه ، ولكنّه في الأولى يجتمع معهم على الفراق ، ممّا يُشير إلى أنّ هذا الفراق كان بإرادة الطّرفين ، وهنا محاولة جديدة للشّاعر لإبراز قوّة مواجهته ، عندما يُؤكّد أنّ فراقه عن قومه كان بإرادته ، فلم يكن الطّرف الضّعيف ، بل كان النِّدّ الذي فارق قبل أن يُفارق ، أمّا في التّركيب الثّاني فإنّه يجمع عبر ضمير المفعوليّة (نا) مع القوم على صلة النّسب المُؤخّرة ، واجتماعه بهم هنا إنّما أراد من خلاله الدّلالة على أنّ هذا الاجتماع فرضه النّسب ؛ إذ لم تعد تربطه بهم علاقات الودّ والحبّ وغيرها من علاقات إنسانيّة قوامها الاحترام المتبادل .

أمّا الاتّجاه الثّاني فيستغلّ فيه شاعرنا إمكانيّات التّضاد الذي ذكرناه بين (فرّق – جمع)، فالفرقة التي سبقت في التّركيب النّحويّ والتّشكيليّ للبيت الجمع كانت الطّرف الذي انتصر في علاقة التّضاد على الطّرف الثاني ، وشلّ حركته شلاً كاملاً ، وما تقديمه على الجمع إلاّ دليلاً نصّيّاً على ذلك ، في حين ترك الشّاعر في الاتّجاه الثّالث مهمّة دلاليّة يُؤدّيها التّصوير البيانيّ في التّركيبين ، فكلا التّركيبين يقوم على الاستعارة التي تعتمد تقنية التّشخيص والتي جعلت المذاهب والمناسب يمتلكان القدرة على التّحكّم بطرفي التّضاد (فرّق وجمع) ، بَيد أنّ الشّاعر أطفأ وهجها الدّلاليّ عندما قام بعمليّة تأخيرهما وتنكيرهما ، لتصبح ممارستهما الفعليّة على مستوى النّصّ في الدّرجة الثّانية من حيث الأهمّيّة بعد دلالة المُتضادين (فرّق ، جمع) .

إنّ هذه الاتّجاهات الثلاثة التي استغلّها الشّاعر على مستوى البناء النَّصّيّ الشّعريّ استطاع من خلالها أن يُحقّق غايات دلاليّة، أبرز فيها علاقته بقومه من موقع القوّة لا الضّعف، وعرّى زيف العلاقات القائمة على النّسب التي لم تحمل في أطوائها سوى خذلان الشّاعر ، الأمر الذي دفعه إلى الإعلان عن أنّ هذه العلاقة النّسبيّة ليست سوى تقسيمات وهميّة تبرز حقيقتها في المواقف .

لقد شكّل الشّاعر بوساطة التّقاطعات والعلاقات المتبادلة بين البنى التي مثّلت كلّ اتّجاه من الاتّجاهات الثلاثة بنية شعريّة واضحة المعالم ، كما في الشّكل الآتي :

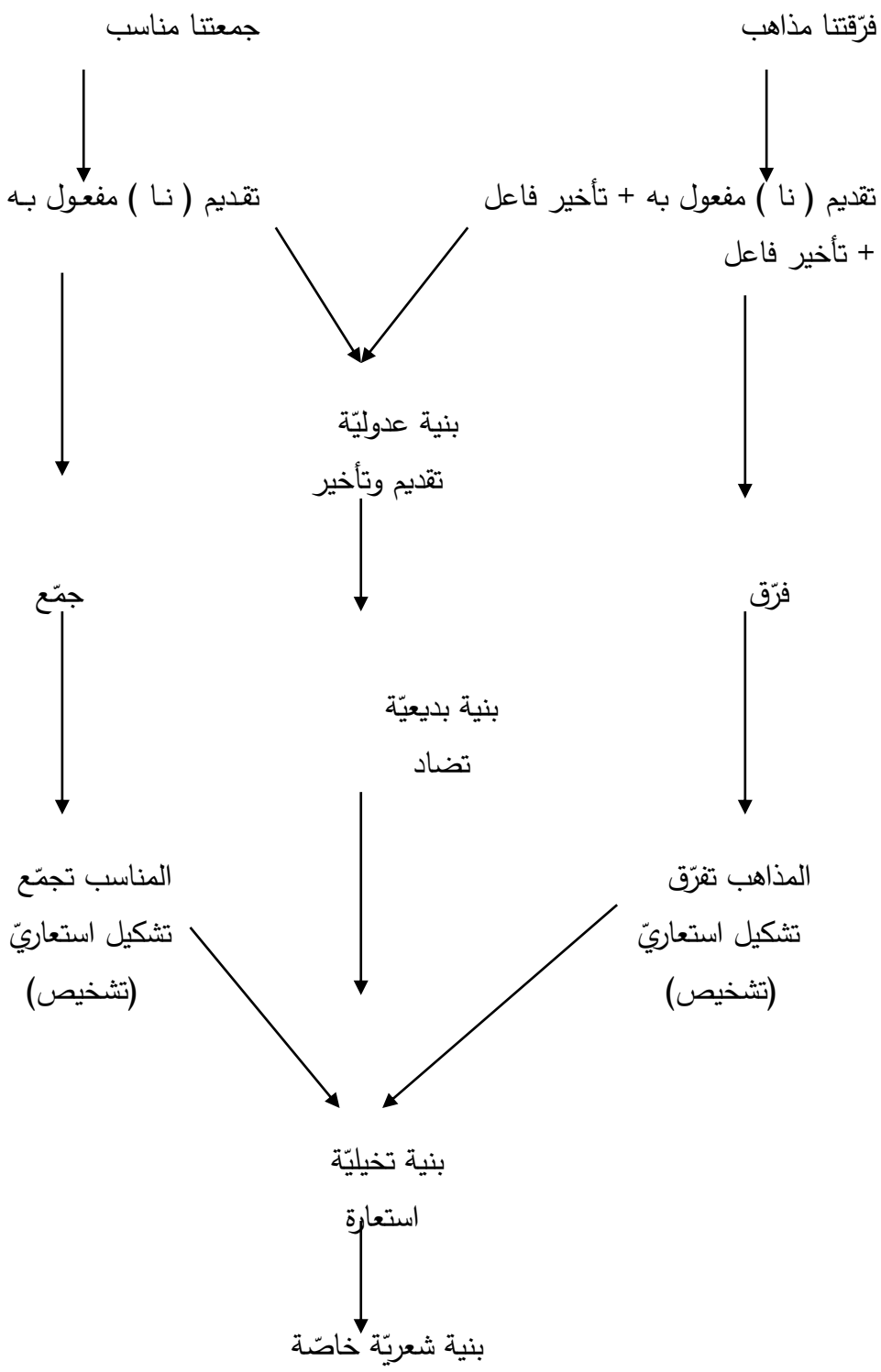
فرّقتنا مذاهب
جمعتنا مناسب
تقديم (نا) مفعول به + تأخير فاعل + تأخير فاعل
تقديم (نـا) مفعول بـه
بنية عدوليّة
تقديم وتأخير
فرّق
جمّع
بنية بديعيّة
تضاد
المذاهب تفرّق
تشكيل استعاريّ
(تشخيص)
المناسب تجمّع
تشكيل استعاريّ
(تشخيص)
بنية تخيليّة
استعارة
بنية شعريّة خاصّة

لقد خلق الشّاعر من بُنى التّقديم والتّأخير في البيت الأوّل بؤرة دلاليّة نصّيّة تلتقي عندها خيوط الدّلالة وتتقاطع على نحوٍ يجعل منها مصدر إشعاعٍ نصّيّ تصل إشعاعاته غير موضعٍ من النّصّ ، وتتأكّد دلالاته عبر تمظهراتٍ جديدة للتّقديم والتّأخير تؤكّد الدّلالات التي ذكرها الشّاعر سابقاً ، فالشّاعر الذي قطع الصّلة مع قومه، وعرّى حقيقتهم، وأثبت ألاّ رابط يجمعه بهم عبر التّقديم والتّأخير ، نراه يحاول في موضع آخر من النّصّ ، وبالتّقنية الأسلوبيّة ذاتها أن يثبت هذه الحقيقة التي وصل إليها ، فعندما يقول الشّاعر :

نَسِـــيْبُكَ مَـــنْ نَاسَـــبْتَ بِـــالودّ قَلبَـــهُ

وجَـــارُكَ مَـــن صَـــافَيْتُهُ لا المُصَـــاقِبُ

نجد أنّ الشّاعر يقدّم في التّركيب (ناسبت بالودّ قلبه) شبه الجملة (بالودّ) على المفعول به المُتلقّي لهذا الودّ (قلبه) المقترن بالهاء العائدة إلى مَن يطمح الشّاعر لتحديده وتعريفه (نسيبك) ، فالنّسيب الذي يعترف الشّاعر به ويتبنّى وجوده ليس ذاك الذي تجمعك به الأصول العائليّة ، بل هذا الذي بادلته (الودّ) وتقديم (الودّ) المحدّد بالتّعريف على المفعول به (قلبه) يؤكّد أنّ فلسفة الشّاعر في تحديد الرّابطة المجتمعيّة ، أو القبليّة ، أو الأسريّة تعتمد مبدأ (الودّ) ، ومن هنا فقد جعل جملة (ناسبت بالودّ قلبه) جملة الصّلة هي التّعريف للنّسيب الحقيقيّ ، ونلمح في استخدام الشّاعر للضّمير المُخاطَب (الكاف) في (نسيبك) بدلاً من الضّمير المُتكلّم محاولة لتعميم التّحديد وبثّه من جهة ، ونفي النّموذج السّابق الذي ابتعد الشّاعر عنه من جهة ثانية ، فالتّعريف ها هنا بات قاعدة أو حكمة خلص إليها الشّاعر من تجربته مع قومه، ودفعته لتعميم هذه القاعدة، وجعلها وجهة نظر عامّة ، وفي ذلك ذمّ مباشر لقوم الشّاعر ، فالنّسيب (القريب) الحقيقيّ الذي أثبت الشّاعر وجوده ينافي تماماً صورة النّسيب الذي قطع العلاقة به ، فهذا تجمعه به المحبّة (الودّ) أمّا ذاك فلا تجمعه به إلاّ أنساب عائليّة خالية من أيّ ملامح حبّ أو صلاتٍ إنسانيّة .

إنّ الشّاعر في هذا النّصّ اعتمد أساليب متنوّعة ، يحمل كلّ منها في أطوائه شعريّة جزئيّة تترابط مع الأساليب الأخرى لتكتمل بها الدّلالات الشّعريّة الأخرى ، وكان للتّقديم والتّأخير الحيّز الأوسع من الساحة التي تتقاطع فيها خيوط الدّلالة، وتتآزر الإيحاءات النّاتجة منها لتشكّل صورةً كلّيّة جعلت النّصّ كلّه حكمة في الحياة، فجّرتها تجارب واقعيّة حقيقيّة ، استطاع الشّاعر أن يُعبّر عنها بلغة بليغة مفعمة باستغلالٍ ثرّ لإمكانات النّصّ وبناه وظواهره الأسلوبيّة ، ولاسيّما التّقديم والتّأخير الذي كان ها هنا المحرّك الأساسيّ للدّلالة والمُعبّر الحقيقيّ عن شعريّتها.

خاتمة :

بعد هذه الدّراسة توصّل البحث إلى النّتائج الآتية :

1- لم ينحصر دور العدول بالتّقديم والتّأخير في إبراز العناية بالمُتقدّم ، بل يكمن في كونه إجراءً بنيويّاً اختياريّاً ينفتح على جملة من المعاني النّحويّة الدّقيقة .

2- مثّل التّقديم والتّأخير بنية فكريّةً قادرةً على احتواء عمق فكريّ من جهة، وتجربة شعوريّة من جهة أخرى .

3- منحت ظاهرة التّقديم والتّأخير الشّاعر مرونة لغويّة ، وهامشاً من الحرّيّة بتغيير ترتيب الكلام ، خدمت أبعاد نصّه الفكريّة والجماليّة .

4- كسر الشّاعر باعتماده أسلوب التّقديم والتّأخير العلاقة النّمطيّة بين المُسند والمُسند إليه في نصوصه .

5- سعى الشّاعر في استخدامه التّقديم والتّأخير في المركّب الاسميّ إلى تعميم تفوّقه على المُتأخّر ، وحضّ المُتأخّر على فدائه والعمل لفكّ أسره .

6- سعى الشّاعر في عدوله في المركّب الفعليّ إلى خلق بنية شعريّة جديدة تلائم السّياق والمقتضى المقاميّ المُتحكّم في البنية النّصّيّة .

ثبت المصادر والمراجع

1- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلّق عليه محمود محمّد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدّة .

2- الانزياح في التّراث البلاغيّ والنّقديّ، د. أحمد ويس، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق ، 2004 م .

3- بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، د. صلاح فضل، مجلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ع 164 ، أغسطس-آب ، 1992م .

4- البلاغة والأسلوبيّة، د. محمّد عبد المطلب، مكتبة لبنان – ناشرون ، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر ، لونجمان ، ط1 ، 1994 م .

5- تأصيل الأسلوبيّة في الموروث النّقدي والبلاغيّ، مصطفى حميدة، رسالة ماجستير ، فلسطين ، نابلس ، 2006م .

6- الخصائص ، ابن جنّي ، تح: محمّد علي النّجّار ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان.

7- دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، قرأه محمود محمّد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

8- ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح د. خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1414 هـ - 1994 م .

9- شروح التّلخيص في علوم البلاغة ، للإمام جلال الدّين محمّد بن عبد الرّحمن القزويني ، شرحه وخرّج شواهده محمّد هاشم دويدري ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1402 هـ - 1982 م .

10- قضايا الشّعريّة، رومان ياكبسون، ترجمة محمّد الولي ومبارك حنون، دار توبقال ، المغرب ، ط1 ، 1988 .

11- مفتاح العلوم ، السّكّاكي ، شرح نعيم الزّرزور ، بيروت ، 1983م .

12- نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثّاني والثّالث للهجرة، د. مصطفى جطل، مطبعة جامعة حلب ، 1980.

13- نظريّة اللغة والجمال في النّقد العربي ، د. تامر سلّوم ، دار الحوار ، اللاذقيّة ، ط1 ، 1983م.